الحملات الصليبية في ثوب عصري

سلكت الكاتبة "كارين أرمسترونغ" نمطا جديدا في قراءة التاريخ الأسود بعين الحاضر المتوتر والمأزوم، إذ حاولت في كتابها الجديد (الحرب المقدسة.. الحملات الصليبية وأثرها على العالم اليوم) أن تكشف مدى ارتباط الحروب الصليبية بالنزاع القائم بين اليهود والعرب في الشرق الأوسط، ليأتي الكتاب متزامنا مع الحملة الأمريكية ضد ما تسميه الإرهاب، في وقت ينظر عدد من العرب والمسلمين إلى تلك الحملة على أنها استئناف للحملات الصليبية التي أضحت تاريخا تستوحى منه العظات والعبر!

وانطلقت الكاتبة من القرن الحادي عشر الميلادي إذ تشهد أوروبا ـ كما تقول ـ "محاولات للتخلص من الشعور بالدونية تجاه المسلمين الأشد منهم بأسا والأرقى ثقافة، وبدؤوا يحاولون بناء ذات جديدة ويشعرون بثقة جديدة. وهكذا كانت الحملات الصليبية جزءا أساسيا من هذه العملية، وعبرت تماما عن الروح الغربية الجديدة".

فرأت بذلك أن "المسلمين قد وفروا على الفرنجة مؤونة البحث عن العدو بالكامل، وإن كان من الواضح أن الفرنجة لم تكن لهم

حتى ذلك الحين أية مآخذ على المسلمين، ولم يكونوا يعرفون شيئا عن الديانة الإسلامية، سوى أن المسلمين غير مسيحيين وأنهم مقاتلون أشداء، ومن شأن التغلب عليهم أن يعلي كثيرا من شأن الفرنجة " وعملية توفير العدو في نظرها " إجراء بالغ الأهمية من أجل تطوير هوية جديدة ".

وتمضي المؤلفة في محاولة حثيثة لتلمس خيوط المقاربة بين الماضي الصليبي والإسلامي؛ ليبدو واضحاً "كيف وصلت الفكرة الصليبية إلى أن ترتبط ارتباطا واضحا ومباشرا بالنزاع الحالي في الشرق الأوسط، ففي بداية رحلتهم إلى ذات جديدة لهم حيث ذبح الصليبيون اليهود، وفي نهاية حملتهم المرعبة ذبحوا المسلمين في القدس بوحشية تقشعر لها الأبدان، وكان الحقد على اليهود والمسلمين قد انغرس عميقا في الهوية الغربية، ولولا اللاسامية الغربية لما قامت دولة يهودية في الشرق الأوسط".

وفي أثناء الفقرات الماضية والتالية تتبنى (أرمسترونغ) رؤية خطيرة، تلمح فيها إلى أن الصليبيين كانوا وراء التمكين للصهيونية الحديثة التي اغتصبت الأرض العربية، وهو أمر لا أستطيع الجزم بأنه كان ما تعنيه الكاتبة تماماً، غير أنه سيكون أوضح من أن يخفى بالنسبة للقارئ العربي الذي يبصر اليوم تحالفا دنيئا بين الصهيونية واليمينية المسيحية، وهو ما ينتقده المسيحيون واليهود المعتدلون على حد سواء.. وإن كانت مسوغات الفريقين مختلفة.

فقررت أن اليهود لما راحوا "يلتمسون لأنفسهم حلا قوميا كانت الفلسفة الأساسية للحل القومي هي إعادة الاتصال المادي بأرض آبائهم، فنشأت الحركة الصهيونية. وكانت الهجرة الأولى إلى فلسطين".

لكن العرب والفلسطينيين الذين لم يخطروا بوعد بلفور، "كثير منهم حيوا بريطانيا، متأملين أن أياماً أفضل تنتظرهم في المستقبل" ماحمل الشاعر على الريماوي يومئذ على "وصف العهد التركي الطويل بالمظلم في قصيدة نظمها عام ١٩١٨م أشار فيها إلى أن الفلسطينيين يعلقون آمالا على البريطانيين" وقصائد أخرى من ضمنها قصيدة لمعروف الرصافي ذكرت المؤلفة مقطعا منها.

وتكمل "لكن جرت الأحداث بعد الاحتلال البريطاني لفلسطين كما هو معروف، فقد بدأ اليهود يتدفقون إلى فلسطين حتى أعلنوا قيام دولتهم عام ١٩٤٨م، وهجر مئات الآلاف من الفلسطينيين من أوطانهم، وهدمت قراهم ومحيت من الوجود واستبدلت بها قرى بأسماء عبرية، وتحول النزاع العلماني على الأرض مرة أخرى إلى نزاع ديني وحرب مقدسة "

المؤلفة رغم أنها لم تحاول إضفاء الشرعية على الحملات الصليبية إلا أنها اجتهدت في التخفيف من دوافعها، إذ رأت بشكل إجمالي أنها قد "امتزجت فيها الدوافع الشخصية والمغامرة والمثل المسيحية"، فيما حمّلت المسلمين في عهد صلاح الدين الأيوبي وزر

تحويل المواجهة إلى صليبية.. وتقول: "كان المؤرخون المسلمون الذين كتبوا عن الحروب الصليبية، يرونها حملات عسكرية توسعية اقتصادية ولم يربطوها أبدا بالدين المسيحي (!!) غير أن عماد الدين زنكي بدأ حملة مضادة لمواجهة الصليبيين، واستعيدت من جديد قيم الجهاد وأفكاره لتجميع المسلمين في مواجهة الصليبيين، وتحولت الحرب لدى المسلمين من علمانية للتحرير والدفاع إلى حرب ممزوجة بالكرامات الدينية، وتصاعدت الوتيرة الدينية للحروب بمجيء محمود نور الدين زنكي بعد مقتل أبيه عماد، فقد كان محمود بخلاف أبيه متدينا".

وإذا كان العرب قد احتفلوا بإعادة السيادة إلى العراق وإن شكليا، بعد احتلاله بدافع تبين فيما تلا أنها مجرد "كذبة"، فإنه من الواضح أيضا أن الحرب ضد العراق وبلدان أخرى عربية وإسلامية لم تكن حربا دينية، بقدر ما هي "اقتصادية" واستراتيجية كما هو الحال بالنسبة للحملات الصليبية الماضية.

والمحزن أنه في الوقت الذي تشهد فيه المؤلفة - وهي شاهدة محايدة - أن صلاح الدين بعد أن انتصر على الصليبيين الذين اغتصبوا أرضه "جرى على يديه بعد ذلك عمليات واسعة لإطلاق سراح بقايا الصليبيين من الأسرى وجمع شملهم بعائلاتهم، ونقلهم إلى بلادهم أو بقايا مدنهم على البحر المتوسط، مثل عكا وصور" وأنه "لم يُقْتَلْ مسيحي واحد من المدنيين بعد معركة حطين، ومازال

صلاح الدين موضوع تقدير العالم المسيحي، ونسجت حوله الأساطير الضخمة إلى جعله أحد القديسين المسيحيين".

في الوقت نفسه يمارس الجهاديون الكاذبون - الذين يفترض أن يكون صلاح الدين قدوتهم - اليوم عمليات تطهير عرقية بشعة في أنحاء شتى من العالم الإسلامي، بدافع "إخراج المشركين من جزيرة العرب "حينا، وإعلاء كلمة الله حينا آخر، وهم في واقع الأمر لا يعلون إلا كلمة "الشيطان". والحديث ليس إلا عن "الزرقاوي والظواهري" وشيعتهما.

فحتى لا تقام حروب صليبية أخرى، وتعود العلاقات الإسلامية المسيحية إلى ما كانت عليه من الازدهار في العصور الوسطى؛ ليكن المعتدلون من المسلمين والمسيحيين صفا واحدا ضد متطرفيهم، ممن يستمدون شرعية إهلاك الحرث والنسل من (الديانتين)، في الوقت الذي تؤكد نصوص القرآن والإنجيل "أن الله لا يحب الفساد".